الحسناء

الجزء الثاني المجلد الاول

بيروت في ٢٠ تموز سنة ١٩٠٩

مدام رولان

خدم الانسانية في الثورة الفرنساوية كثير من السيدات وكن فيها مثالاً لمكارم الاخلاق ونبراساً للحرية والاخاء والمساواة بعد ان هيجن الافكار ونشطن الهمم مجاهدين جهاد الابطال لتخليص من الاستبداد والظلم ولاصلاح العادات والقوانين والنظامات. اشهرهن اثنتان مدام دي سنال المكتوبة سيرتها في الجزء الاول من الحسناء ومدام رولان موضوع هذه السطور.

بيد انهما وان تشابهتا بالشهرة ما تماثلتا بالحظ اذ لم تنج الثانية من غوائل الثورة كالاولى ولا فازت مثلها بحقن الدماء وتخليص الابرياء ولا عاشت لترى شيئاً مما من نتائج جهادها في سبيل خير بلادها بل قضت شهيدة الحرية على مذبح النظاعة في هيكل الفوضى فحق لاسمها ان يحيى ولذكرها ان يخلد

ولا ريب في ان السيدة العظيمة التي تنبغ من بين جدران الخمول وترتقي من الكوخ الى القصر تاهضة من احشاء المادة الى صدور مجالس الخاصة وتشجع قرينها على اقتحام المظالم وترشده في الادارة والسياسة وتوصله الى منصة الوزارة وبعد ان تسبب عزله منها تعيده اليها رغم ارادة

مدام رولان

من السجن الى الاعدام

الملك واعوانه وتضرم نيران الثورة الاصلاحية ولا ترى جموح نفوس الثوار تقاومهم لكبحها وتذهب ضحية هذا السيل المدمر فيتعصب قريبها بعدها لطباعه ويكره الدنيا فيتحجر — لا ريب في انها جديرة بحسن الاسم وبعد الصيت وتخليد الذكر

لا سيما لانها مع كل ذلك ما تلهت عن تدبير منزلها وادارته ولا اهملت تربية كريمتها وتأديبها بنفسها ولا تضاءلت عن تأدية واجبات المرضى ومطالب المساكين ولا اكتفت بما تعلمته في المدرسة ولا استدامت التكبر والكسل بل كانت على عكس هذه الامور حتى انها فضلت الموت فداء زوجها واقتبلته بشجاعة نادرة المثال

وهي مانون — جان فليبون مدام جان — ماري لوران ابنة حفار خاتم عتيق سياسي مشهور ولدت في باريز في ١٧ ادارسة ١٧٥٤ في بيت خيمت عليه عناكب العسر فسالت احواله وحوى من الامتداد في ربيه ما قلما يرجى منه الاولاد تربية حسنة وان عامل الصلاح الفساد اذ جمع بين دماثة اخلاق الام وتناهتها بما تيسر من هبات الله وطيب قلبها ورقة عواطفها وبين رداءة الاب الطباع السيء الاطباع وحقده وتذمره . ومع ذلك اسلم الفتاة تربية جيدة وتعليم وافر بناية هذين الوالدين لمعرفتهما قيمة التربية وادراكهما اهمية التعليم وفوائدها بما تقتضيه واجبات الامومة والابوة

فتعلمت القراءة والكتابة في الرابعة من عمرها وهذا من الغرب مما يروى من النابغات الشهيرات واجتهدت بالتعلم ونجحت سريعاً في تلقي العلوم اخصها التاريخ والرسم والموسيقى وختمت دروسها بعلم الهيراديك

وابدت منذ حداثتها ذكاء بالغاً ورزانة عظيمة وحزماً شديداً ولم تذهب مع الاوهام بل لم تعتقد الا بما تقتنع به وترى فيه الحق وهذا نادر في

الاحداث ايضاً كندرة اشتغال اترابها مثلها بخدمة المنزل بحذاقة ودراية مع التعلم والدرس . وطالعت تراجم المشاهير وتولعت بكتاب فلوترخس سير عظماء اليونان والرومان وكانت تصحبه معها الى الكنيسة ولم تتجاوز بعد التاسعة من سنيها وهو الوقت الذي بدأت فيه الافكار الجمهورية تختلج في رأسها دون ان تفهمها كما صرحت فيما بعد وبلغ بها هذا الامر الى ان صارت تناجي به نفسها وتقابل بين عظمة اليونانيين والرومانيين وبين اختلال احوال فرنسا وتبكي لانها لم تولد اسبرطية او رومانية ثم لاتلبث الافكار الدينية ان تمحو هذه التصورات

وبما ان والديها لم يستطيعا الانفاق على تعليمها كما ينبغي ادخلتها والدتها الى دير لتتعلم فيه اجابة لرغبتها فابدت من الرزانة والاجتهاد والمحافظة على النظام والقانون والاكبار لذاتها اللطيفة المتقية ما جعلها ممتازة على البنات الزقات الطائشات وقدوة صالحة لرفيقاتها وفخراً للمعلمات والصديقات . وانجذبت الى المذهب الكاثوليكي . وبدأت بالانشاء بمكاتبة صديقة لها ذات عواطف عالية كريمة فتسهلت عليها الكتابة وازداد ذوقها تحسناً فيها

ولما عادت الى البيت وهي في عامها الرابع عشر اخذت تتمرن على الكتابة وتراوضها حيناً بعد حين وجمعت خلاصة مطالعاتها واضافتها الى ما استصحبته معها من الدير من المنتخبات اللطيفة ودرست مبادئ الطبيعيات والرياضيات ولم تر كتاباً مهما كان موضوعه الا وطالعته . وفهمت افكار بوسيه وارائه الفلسفية قبل ان تدرك السابعة عشرة وطالعت تعاليم الفيلسوفين ديكارت وفينون واللاهوتي جانسينيس وسواهم

مع كل ذلك لم تتذمر منذ تركها المدرسة عن القيام باجباتها المنزلية تحت ادارة امها لاعتبارها اياها من اهم واجباتها ولم تستنكف من مشترى لوازم

المنزل بنفسها ولا استحت بالشغل ولا رأته معيباً ولا اعتبرت اللهو غاية الحياة فذاع صيتها بين الشبان والكهول فمالوا اليها واحبوها ورغب كثير منهم في الاقتران بها واذ لم تكن بعد قد اختبرت جيداً اخلاقهم ونفوسهم رفضت . وكانت تقول لوالديها — ان الطبيعة والشرائع قد اتفقت على وجوب تفضيل الرجل على المرأة فاخجل ان اختار من لايكون اهلاً لهذا المقام السامي . واراد امير عاقل ان تكون عروسا لابنه الطائش الجاهل لتهذبه بحكمتها سواء السبيل فابت على ان هذا الامير له فضل عليها اذ نشطها على التاليف والكتابة ومكنها من معاشرة الوجهاء والاعيان

وعندما بلغت الحادية والعشرين من عمرها منيت بوفاة امها فتأثرت كثيراً ولم تحتمل شدة الحزن فمرضت وباجهد استعادت صحتها وتعافت . ومع اهتمامها بتدبير منزلها لم تهمل المطالعات والكتابات الفلسفية بل ثابرت عليها وصارت تكتب وتخطب في اهم المواضيع المفيدة فانتدبت خطيب بوردالو وفي حفلة عمومية للاكاديمية الفرنسوية بحثت في موضوع مهم عرضته اكاديمية بيزانسون فدهش الناس منها وقدروا لها مستقبلاً حسناً لاسيما لما رأوا الشهرة لم تذهب بها في بوادي الاغترار والمباهاة . وشهرتها كانت سبب معرفة رولان بها فاحترمها واحبها وطلب يدها فاجابت بعد التروي بالايجاب وكان هو مفتشاً للمعامل في ليون وذا وجاهة وماثر

فاقترن به في ٤ شباط عام ١٧٨٠ وعمرها اربع وعشرون سنة وذهبا لقضاء شهر في ايطاليا ولم ينغصا فيها سوى فراق ابيها وبعد ان اقاما سنة في باريس طبع فيها رولان مجموعة فنية ساعدته بنسخها وتنقيحها انتقلا الى اميان ومنها الى ليون حيث ذاقت لذة الامومة مع هناء عيشها وتمتعها باحسن ما تتمناه ربة بيت . ولم يكن هناؤها متأتياً من الثروة ووفرة الخدم او من مكارم اخلاق القرين فقط بل

من الاجتهاد بالقيام بالواجبات المنزلية والانسانية دون اتكال على احد فكانت عندما تنحرف صحة رولان تمرضه وتدبر الطعام المناسب له بيدها وتعامله معاملة ام لابنها على ان عمره يكاد يناهز عمر ابيها . ولما ولدت ارضعت كريتها وربتها وعلمتها دون استخدام مرضع ومربية وفي معيشتها في لابلاتيير كانت تعود المرضى وتتفقد الساكين فتعالجهم وتحسن اليهم وتعزيهم

قالت مرة — صرت امرأة رجل فاضل قد ازدادت محبته لي بزيادة معرفته لي لكن شعرت بانه يخل بواجب المساواة بيننا لتأصل خلق التسلط فيه عشرين سنة اكثر مني فكنت انهمك في اشغاله لاسيما التي تتعذر عليه حتى عودته ان لا يستغني عني بشيء في العالم ولا ساعة واحدة

وهكذا كانت تعاون زوجها في جميع اشغاله الى ان جعلته مديوناً لها بشجاعته معارفه حتى وبوزارته ايضاً اذ كانت تنبه افكاره وتصحح اراءه وانشاءه وترشده في كل امر . ساحت واياه في انكلترا وسويسرا ولما مرت في جنيف شككت فيها لانها لم تر فيها تمثالاً لجان جاك روسو . ولعل ملاحظتها من جملة العوامل على نصب هذا التمثال في ما بعد

على انه ما تقدم لم يكن شيئاً مهماً في سيرتها بالنسبة الى ما يأتي لانها حالما بدأت مظاهر الثورة تلقت اخبارها برغبة وسرور كمدام دي ستال واعتبرتها خير حافظ لاستقلال فرنسا واقرب سبيل لخلاصها من انياب المفاسد واحسن بشرى بتغير تلك الاحوال فبذلت جهدها بالترغيب فيها والحض عليها ودفعت مواطنيها الى مناصرتها وتعاونت وقرينها على كتابة المواضيع المناسبة لها في جريدة ليون وجرأته على تولي الزعامة وادارة الثورة مع اصدقائها فوثق به الاحرار وانتخبوه نائباً عن المدينة في مجلس الامة وكتبت مقالة بديعة في وصف اتحاد الليونيين بيع منها اكثر من ستين الف نسخة فأعجبت بقدرتها الكتابية فتشطت وسار قلمها في

ميدان البلاغة شوطاً بعيداً وقد برهنت ايضاً على معرفة جيدة باحوال بلادها ومقدرة فائقة على التدقيق بتتبع الحوادث العمومية . فاثناء المستبدين منها وحقدوا عليها متبددوها بالقتل وترصدوها دون ان تتحول عن عزمها او تتوانى في حزمها وتؤدي بها الجهاد الى الموت كما ادى . الان من خلال ذلك ترآى لها النجاح المبادىء التي نشأت عليها واحبتها ولم ترتب منها خيبة امل . ورافقت رولان الى باريز عند ماذهب فتجاسر ليون وبادرون الى المجلس العمومي وانضمت الى الجيرونديين وكانت تحضر اجتماعاتهم وتباحثهم وتبدي لهم من الاراء الجليلة بالاساليب اللائقة ما جعلهم يقدرونها كثيراً ويأتمرون بوامرها ويتبعون نواهيها حتى أعلن في مجلس الامة انها روح الجماعة ولهذا لقبوا بالرولانديين نسبة اليها . ولم تقصر بتلك في الكتابة بجريدتهم بل ساعدت ايضاً بانشاء جريدة جيرونية لم يصدر منها الا عددان

وقد تساعدت على افكار زوجها وقوى نفسه وساعدت بكل ما يليق له التعيش على ذوقه ولما الزمت وظيفته في ليون (مفتش معامل) بعد حل مجلس الامة استعادتها له في باريز وايدت خلافاتها مع الثوار واخذت تبث افكارها بينهم بوجوب تأليف وزارة جيرونديه وتحضهم على ذلك وما برحت تسعى حتى دارت بتاليف هذه الوزارة وانتخب رولان فيها وزيراً للداخلية فتحققت حينئذ عاطفتها وقالت — تأثرت كثيراً من تراحم الرجال لنيل الوظائف وتاكدت اني كنت محبوبة مثل نفسية كريمة في دور علي اني دائماً كنت ارى الذين يتوقونني بالحزم اكثر اهلية مني

ولم يطل اجل وزارة قرينها كثيراً لانه ما سئل الاشارة على الملك لويس السادس عشر باعلان الحرب على النمسا بن حلفائهم كتبت باسمه للملك كتاباً قوي الحجة عظيم التاثير . فاتخذه احد الوزراء حجة للوشاية على زميله لما فيه من الاراء الجمهورية الحرة فعزل الملك رولان فبادرت زوجته الى توليد العلاقات

مع الزعماء الجمهوريين وتداخلت مع باربارو فاطلعها على لائحة المخالفين التي تؤول الى قلب العرش وتاليف الجمهورية وكانت قد اشارت على قرينها برفض الكتاب على المجلس العمومي لتعلم الامة سبب عدم قبوله ولم تكتف بان عد عزله ضحية لحب الوطن بل حثته على طبع كتابه وتوزيع نسخه في كل المملكة فهاجت الامة واضطرت الملك الى ارجاع الوزير الى منصبه

وتعبت كثيراً في تمثيل هذا الدور الممتاز على مرسح السياسة الذي سلت انعابها بما اصابته من النجاح وصارت تدير اشغال الوزارة باسم زوجها ودفعته الى التمسك من الفظائع التي يرتكبها الثوار فاوغرت صدورهم حنقاً عليها مما

من هنا بدأت مصائبها . على ان مجدها لم يقف عند حد بلوغ رولان وزارة الداخلية بل تجاوزه الى الاستشهاد في سبيل الحرية . ولم يكن كره الثائرين المتطرفين لها ناشئاً عن جهل لمواهبها بل منشأ من سوء ظنهم بها اذ توهموها تميل للملكية ضدهم بينما هي كانت ترغب في حقن الدماء وصيانة الابرياء والاعتدال بالتخلص من الاستبداد دون ارتكاب ما تأنف منه العواطف وتمسك له الاسماع وقد بلغ منهم سوء الظن الى ان حاولوا منع رولان من الاعتماد على ارائها وعندما انتظم في مجلس الاتحاد الوطني وسئل بان لا يترك مذكرته . صاح دانتون احد زعماء الثورة بقوله — اذا دعوا الحواجه الى وليمة فليدعوا عقيلته . انا اعرف كل فضائل الوزير ولكن نحن محتاجون الى رجال لا يسيرون حسب ارا، نسائهم

واخذ اعداؤها يتهمونها بالانحراف عن جادة الثورة لانها لم تعد ترضى بسياستهم وفظائعهم الفاتكة لذا فكانت تدافع عن مساجدها وسعت لاستمالة فريق وافر منهم فنجحت بعض النجاح وقد شبهها الخطباء بسيرسي الساحرة التي لعبت دوراً مهماً في اوديسة هوميروس واستعظموا الولائم التي كانت تقيمها بمثابة

غذاء او عشاء ارغاموقد وشى الأعداء بها مرة الى المجلس الوطني وبفضل فطنة احتها انصفتهم واسكتهم واضطرت الرئيس الى الاعتذار لها وتهنئتها ببرئتها مما نسب اليها وهذا الحزب هو الذي قبل الثورة بليلة استشهد في سبيل الحرية والاستقلال

ولا شك ان روبسبير الذي خافته مرة هو اقل كان من اشد المعادين على قتلها وقد قال لامرتين المؤرخ السياسي لا اشك ان مدام رولان ذكرت في سجنها ليلة التي خلت حياة روبسبير فيها فان كان هو ايضاً قد ذكرها وهو في لجة بحره وقوته فلا ريب في ان ذكرها كان عليه اشد من وقع السهام

ولما رأت ما آلت اليه الثورة ولم يعد بامكانها ايقافهم عند حد محدود مع ما بذلته من الجهد في حض حزبها على مقاومة المتطرفين حزنت كثيراً ولم تعد تهنأ بعيشها لاسيما وكل يوم كان يبدو لها فيه خطر جديد يصاب حياتها مرصدة للموت في كل آن فاشير عليها ان تقيم خارج سواي الوزارة فلم تخف ولم تتفعل لخير ايشت من تحسن الحال فعرضت رولان على الاستقالة فترك الوزارة ولم يعلم الملكيون من امرهما بعد حتى اذنوا باقتدار الحكم بالقبض عليهما وحاكمتها فسبقت رولان سبيل الهرب وكان بامكانها الخلاص لكنها ابت وقالت — الاهتمام بتخليصي من الظلم اصعب عليّ من احتماله — وبينما حملها البعاليل بوربير قبض عليها واقيمت في سجن مظالم عجيب فابدت عظمة سامية وقدوة جليلة للسجونين

وعندما حيل بينها وبين سبيل الفرار رفضت ان تلاقي تنبه غضب اعداء قريباً وتيسر مكان حتفهم اليه فيحولونه عاراً ويذيقونه مر النكال وفضلت البقاء على عزمها والتجرد لتفكرت في سجنها الامبراطور تاسيت الروماني الذي قتل بعد ستة اشهر من توليه العرش فتأملت له من اعماق فؤادها وذكرت لاترام كل ليلة الابعاد ان تطالع بعض اقواله المعلقة بحائطها وتحملت مضض السجن ورطوبته

وعفته بشجاعة وصبر نادرين تصورها بان النتيجة تكون موافقة لنفع بلادها وكانت تصرف أوقاتها بمراجعة اللغة الانكليزية وكتابة المقالات السياسية وابدت من ثبات الجاش عندما استفاقوها ما ادهش الحاضرين وكانت تدافع بجلد فائق الوصف الى ان سألوها ما يمس بشرفها فتأثرت ولم تعد تعي : ولما جاءها المحامي شوفولا كارد ليفاوضها في المواد التي اعدها للمدافعة عنها استقبلته بسكينة وكلمته ببرودة ثم بكل تأثر سحبت خاتماً ثميناً من اصبعها وقدمتها له وقالت — لا اراني غداً الى المحكمة للاستيناف . دون ان تخلصني . اقبل هذه الاجرة الوحيدة التي اقدر ممرتي لجميل ان اقسمها لك الان لانني غداً لا اكون

وهكذا كان فقد حكموا عليها في الغد بالاعدام وتروا تنفيذ الحكم حالاً فاحتملت المحاكمة وسمعت الحكم بنتهى الشجاعة وفيما هي ذاهبة الى المحكمة ثوبها الابيض الناصع وشعرها المدلى الى صدرها كان الناس يرافقونها ويبكون من حزنهم عليها لاسيما النساء كما يظهر من الرسم في صدر الحساب وهي تعزيهم عنها بتأثر لايوصف وتنشطهم على احتمال المصائب كما كانت تنشط السجناء البائسين الذين حتى اشرارهم واشقاهم كانوا يحبونها كثيراً واحدهم قدم لها سريره تكرماً عندما نقلت لمكان وطيء عفن بلا غطاء ولا فراش

وكان رفيقها الى ساحة الاعدام مدير اوراق المحكمة لامارش فرأته خائفاً فبشت بوجهه بلطف واخلاص قبسم ولما وصلوا بها الى الساحة التفتت الى تمثال الحرية وقالت بلهجة بديعة — ايتها الحرية كم من الجرائم يرتكب الناس باسمك ايتها الحرية — كم يتلاعبون بك اليوم

وعندما هموا باعدامها طلبت قلماً وورقة تكتب خواطرها امام آلة الموت كأنها في المكتب اذ لم تفقد شيئاً من ادراكها وهدوئها بنة فلم يجيبوا طلبها فاحنت رأسها الى الجلاد بصفاء وجه وسكون فاعدمها الحياة وكان ذلك في

الثامن من تشرين الثاني سنة ١٧٩٣ قبل ان تبلغ الاربعين عاماً من عمرها

وصفها لويف الكاتب بانها كانت ذات روح جمهورية في جسم مجبول من اللطف ومصوغ من اداب الزعامة الحقيقية . كانت تتكلم من نافذة السجن بحرية وشجاعة رجل عظيم بكلام جمهوري بفرنسية عذبة : وكانت تلوم اصدقاءها لتطرفهم . وعندما كانوا يهيئون لها آلة الموت كانت اعجوبة الثورة . السجناء كلهم كانوا مندهشين متحيرين . حديثها كان مرتباً وفوراً رزيناً بلا برودة . فتكلم بزلاقة وصفاء ورقة لهجتها الموسيقية لا تشبع الاذن منها . وكانت عظمتها تبدو بوضوح عندما تبكي لذكر كريتها وقربها لما فيها من مزيج لين العواطف وشدتها

وكأنها كانت عالمة بما سيحل برولان فقولها انه لا يعيش بعدها اذ بعد وفاتها بستة ايام قد انتحر تاركاً ورقة صغيرة كتب فيها انه لم يعد له صبر على الحياة في عالم ملوث بالاثام . وليس هذا عليه بكثير لان حياتها الماضية لم تكدرها غيمة نكد ومقتله كان مدبراً بالتريث والاقتصاد وبعد النظر وجودة المبادئ وقد قالت عنه مرة — انه لم يكن ضعيفاً في حسن الادارة واذا براسلتي ازدادت قوته وصارت اكثر تأثيراً لاني كنت اضع في كتاباته مزيجاً من الشدة واللطف بقوة الساق وحسن العواطف التي لا تختص بها الا امرأة حساسة ذات عقل سليم

اما معارفها فكانت واسعة عميقة . وعقلها كبيراً وقلبها كريماً سيالة القريحة تكلماً وكتابة . تكتب في الانكليزية والايطالية بسهولة ودقة وفي الفرنسية انتها الاصلية بفصاحة وبلاغة

تغيرتها الوطنية وحبها الانسانية وشجاعتها ونشاطها وفطرتها الطيبة وارتقاؤها بالكد والاجتهاد وعظمتها ونبالتها . مبادئ سامية حرية بان تقفها الامهات للبنات